رحلة فى الديار المصرية فى القرن الثامن عشر (الميلادى) :

النحلة النصرية
فى الرحلة المصرية[1]
لمصطفى البكرى الصديقى

للأستاذ أحمد سامح الخالدى

لما دخل شهر جمادى الآخرة من سنة (١١٣٢ هـ ١٧١٩م) أراد الشيخ مصطفى البكرى زيارة الخليل ومنها إلى القاهرة ، ذات الربوع الزاهرة ، وأقام فى الخليل أياماً ، جاءه فيها شيخ موهوب مجذوب يكنى بأبى جاعد ، فسأله الشيخ بالإشارة عن التوجه إلى مصر ، فأومأ بيده نحو السماء ، مشيراً بأن العلم لله . وخرج مسرعاً ثم عاد ، فكرّر الشيخ السؤال فأعاد المجذوب الجواب . وأخبر عن رجل صالح أنه يقول إنه تراءى له سيدى اسحق وقال له قل لفلان يرجع إلى وطنه ، فعدل الشيخ عن السفر . ودعاه الأخ الشيخ عبد الرحمن الخطيب بن الشيخ أحمد التميمى إلى كرمه خارج الخليل ، وكان قد اتصل بطريقة الشيخ مثل ذلك ، فأجابه وكان الوقت قيظاً ، فحصل للشيخ من ذلك مشقة .

وعاد الشيخ مصطفى إلى القدس ، وأقام إلى أن مضى شهر الصيام . وفى شوال توالت الأخبار بأن جناب الدستور المكرم والمشير الفخم الحاج رجب باشا تولى الديار المصرية ، ومراده زيارة الأراضى القدسية والخليلية ، ومنها ينزل إلى العريش ، وكان له مع الشيخ محبة ومودة ، من مدة طويلة . وتحقق حلول ركابه فى مدينة نابلس ، فسار الشيخ لاستقباله مع شيخه الشيخ محمد الخليلى ، ودخلا عليه ، وكان الباشا ينزل عند نقيب أشراف نابلس السيد محب الدين ، فدعا الشيخ لصحبته إلى أرض الكنانة ، فأحاله على الشيخ محمد الخليلى فوجه إليه الخطاب فتململ ، ولكن الباشا ألح وأبرم فقبلا الدعوة .

وبعد زيارة الخليل ، والمعاهد والمشاهد فيها ، سارا صحبة الباشا إلى بيت جبريل ، ونصب لهما خيمة ، وعين لهما ما يحتاجان إليه من كثير وقليل ، ولم يكن للشيخ فى هذا السير رغبة ، لما فيه من المخاطر ، وما كان قد استعد لمثل هذه السفرة الشاقة ، وودع الذين يحبونه ، وشرع لفوره فى كتابة رحلته وسماها [النحلة النصرية فى الرحلة المصرية] وسار فى الصباح لغزة وقال فيها من قصيدة :

وارد الشوق غز فى القلب غزّة عند ما جئت أبتغى أرض غزة

ثم سار إلى خان يونس ، وبات فيها وقال فيها مواليا :

يافرحتى مذ بدا المحبوب لى يونس مسامرى بين ندمانى لخان يونس
سألت ما الإسم بدرى قال لى يونس
وقلت والأصل حبى قال لى يونس

واستأنس بأصحابه وبكر نحو العريش وقال من قصيدة :

عرش الحب فى الحشا تعريشا حين حل الملتاع فيه العريشا

وأقام ثانى يوم ينتظر ذخائر القوم ، ثم توجه نحو (بير العبد) ذى الماء الملح ، فلم يطق فيه مقاماً ، وجهد حتى وصل (قطية) ومال لسهلها ونزل عليه ، ورحل إلى (الصالحية) وتلقاه هناك نذر من جند مصر المحمية . وكان رافقه من غزة هاشم الشيخ صالح مفتيها ، فتمرض فى الطريق ودفن فى الصالحية . ونحا بعد ذلك جهة (القرين) والوزير يرمقه والشيخ محمد الخليلى بعين ، ويتفقد أحوالهما فينزل عنهما النين .

ونزل بعد ذلك نخيل (بلبيس) وارتحل للخانكه[1] وأتاها ليلاً ، وأمر الوزير بعض من عول عليه من جند مصر ، بإنزالهما داخل المدينة فى مكان مناسب ، وأرسلهما مع خادمه إلى دار محمد بك المكنى بأبى الشوارب ، وورد عليهما للسلام أعيان البلد ، وهى دار واسعة الأكناف ، ممتدة الجوانب والأطراف ، مقسمة إلى بيوت أربعة ، كل بيت يسع الصنجق[2] والذين معه . ويقول الشيخ فى وصف الدار « وكنا فى ربعها نتيه ، ونكاد إذا درنا فى جنباته أن نتيه » .

(١) مخطوط فى خزانة الكتب الخالدية ببيت المقدس . ولد مصطفى البكرى الصديقى سنة (١٠٩٩ هـ وتوفى ١١٦٢ هـ) .

(١) أو الخانقاه ، هو الزاوية أو الرباط . بيت الصوفية
(٢) الصنجق : اللواء والدائرة تحت لواء واحد .

ولما دخل مصر القاهرة ، شهد مدينة بالمباني الفاخرة ، ورأى فيها أشياء كثيرة ، لم يرها في غيرها من المدن الشهيرة ، فتحقق أنها بلدة جمعت محاسن خطيرة ، ولم يقل كما قال البعض أنها قرية كبيرة ، بل قال كما قال الإمام الشافعي عنها « كنت أظن أن مصر في الدنيا ، فرأيت الدنيا في مصر » .

وكان الوزير الكبير ، سأل الشيخ قبل دخول مصر ، عن محل نزوله ، فأجابه في محل يكون شيخه الشيخ محمد الخليلي فيه ، فسأله « ولم لا تنزل في بيت البكري الوسيع ؟ » فأجابه « رغبة في صحبة الشيخ الرفيع ، وإن دعانا شيخ السجادة إليه أجبناه » . ويقول الشيخ « وأقمنا في هذا البيت مدة ، وأظهر لنا كبير بيتناصده ، وجعلنا حرفاً منسياً ، كمن جاء شيئاً فرياً ، فنفرت النفس » . وارتحل إلى دار في الخرنفش صغيرة الدائرة ، تحت تصرف صديقه ابرهيم افندي ، القاضي ، وهي لصقة قاعة التجلي التي للسادة الوفائية ، وكان يتردد عليها ، وربما أقام ليلا ونهاراً لديها . ويقول الشيخ إن هذه القاعة نظير قاعة الجلال التي في بيتهم ، وقد دخلها شيخه الشيخ عبد الغني النابلسي .

وأول ما ابتدأ به من الزيارات زيارة الحسيبة النسيبة السيدة نفيسة بنت الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب . قال المناوي في ترجمتها : ولدت بمكة سنة خمس وأربعين ومائة ونشأت بالمدينة في العبادة وتزوجت اسحق المؤتمن بن جعفر الصادق ، فولدت منه القاسم وأم كلثوم ، قدمت مصر ونزلت بها ببيت عمتها سكينة المدفونة بقرب دار الخليفة بمصر ، ولها بها الشهرة التامة بالولاية . ماتت بمصر سنة (٢٠٨ هـ) وكانت قد حفرت قبرها بيدها وصارت تنزل فيه وتصلي ، ودفنت في قبرها ببيتها بدرب السباع بالمراعة ، محل معروف بينه وبين مشهدها الآن مسافة بعيدة . ثم ظهرت في هذا المكان الذي يزار الآن وكان الشافعي يعتقدها ويزورها . قال الذهبي ، وكان والدها من سراة العلويين ، ولي المدينة للمنصور ثم حبسه حتى مات ، فأخرجه المهدي وأكرمه ولم يزل معه حتى مات المنصور في طريق الحج . ولها كرامات كثيرة . ثم توجه للقرافة ، فزار مقاماتها . ومنها إلى زيارة مقام الإمام محمد بن ادريس (الشافعي) ولد بغزة أو عسقلان سنة (١٥٠ هـ) وهي السنة التي مات بها أبو حنيفة ، وأجيز بالإفتاء وعمره خمس عشرة سنة ، ثم رحل إلى الإمام مالك فأقام عنده مدة ، ثم لبغداد ، ولقب بناصر السنة ثم عاد لمكة ، ثم لبغداد ، ثم لمصر ، فأقام بها حتى مات سنة (٢٠٤ هـ) عن أربع وخمسين سنة .

ثم عطف بعد ذلك على زيارة شيخ الإسلام زكريا بن أحمد زين الدين الأنصاري السُنَيْكي ،(١) ثم القاهري الأزهري ولد سنة (٨٢٦) هـ) وتوفي سنة (٩٢١ هـ) . ثم زار أسلافه الكرام السادة البكرية ، ووقف قبالة القطب الكبير سيدي محمد ، وقرأ له فاتحة الكتاب .

وتقدم بعد ذلك لزيارة عم والده ، جناب العالم أحمد لفندي نجل والد جده الشيخ كمال الدين البكري نزيل دمشق الشام والقاطن بها هو ووالده وجده ، وكان وفد الجد المذكور من مصر إليها ، ثم إنه استحسنها وعول في السكنى عليها . وعم والد الشيخ ورد على مصر من الحجاز معزولا عن قضاء مكة ، وتوفي ثاني يوم دخوله وذلك سنة (١١١٨ هـ) .

ثم سار لزيارة أبي الحارث الليث بن سعد بن عبد الرحمن ابن أبي الثنا الفهمي القرقشندي وهو من تابعي التابعين ، القائل رأيت نيفاً وخمسين رجلا من التابعين . وقال في حقه يحيى بن بكير ، الليث أفقه من مالك . وهو شيخ البخاري ومسلم ؛ ولد سنة أربع وتسعين وتوفي عام خمس وسبعين ومائة . وزار بعد ذلك جملة صالحة من سكان القرافة لا يمكن عدهم ، ولم يزد على التمثيل في العتبات الرفيعة إلا لدى سلطان العشاق سيدي عمر بن الفارض مولده (٥٥٦ هـ أو ٥٦٠ هـ) ووفاته (٦٣٢ هـ) .

ثم قصد زيارة سيدي محمد الحنفي نجل علي شمس الدين الشاذلي [ولد سنة ٧٤٧ هـ — وتوفي سنة (٨٤٧ هـ) . ثم توجه لزيارة السند الجليل سيدنا الحسين بن علي رضي الله عنه ، ولد سنة أربع أو ست أو سبع واستشهد يوم عاشوراء يوم الجمعة سنة إحدى وستين (بكربلا) . واعلم أنهم اختلفوا في رأس الحسين بعد مصيره إلى الشام أين صار ، وفي أي موضع استقر ، فذهبت طائفة إلى أنه طيف به في البلاد حتى انتهى إلى عسقلان فدفنه

(١) نسبة إلى قرية من أعمال الشرقية

أميرها بها (١) فلما غلب الأفرنج على عسقلان (٢) افتداه منهم الصالح طلايع وزير الفاطميين بمال جزيل ومشى إلى لقائه من عدة مراحل ، ثم بنى عليه المشهد المعروف بالقاهرة ، وإلى ذلك أشار القاضي الفاضل (٣) في قصيدة مدح بها الصالح طلايع . وصار آخرون ومنهم الزبير بن بكار والملاء الهمداني إلى أنه حُمل إلى المدينة مع أهله فكفن ودفن بالبقيع عند قبر أمه وأخيه الحسن . وذهبت الأمامية إلى أنه أعيد إلى الجثة ودفن بكربلا بعد أربعين يوماً من القتل . ورجح القرطبي ، الثاني قائلا ما ذكر من أن في عسقلان مشهدا هناك أو بالقاهرة باطل لا أصل له . انتهى . والذي عليه طائفة من الصوفية أنه بالمشهد القاهري .

ثم زار الشيخ ، علم هذه الديار ، وأحد أركان مصر ، سيدي عبد الوهاب بن أحمد الشعراني يتصل نسبه بسيدي محمد بن الحنفية نجل علي رابع خلفاء المختار ، ولد تقريباً سنة (٨٩٩ هـ) وتوفي سنة ٩٧٣ هـ وقد ترجمه المناوي وغيره وترجم هو نفسه في سننه ، وقد طالع الشيخ جملة من مؤلفاته ، وكرر له الزيارة فهو أحد أشياخه

ثم زار سيدي محمد الكردي المكاني بعد باب الفتوح ، ثم مال لزورة الخواص ، وضريحه بزاوية الشيخ بركات خارج باب الفتوح تجاه خوص ، توفي سنة (٩٣٩ هـ) .

ولقد دعاه جناب الشيخ علي نجل الحنفي الولي ، إلى مكان نزيه ذي أبنية وثيقة ، في مصر العتيقة ، وكان بحر النيل في ازدياد على المعتاد ، فأركبه والشيخ محمد الخليلي ، قياسة له صغيرة ، وأرسلهما للتفرج على المقياس فسارا ورأيا العمود فيه مغطى بماء فاقت (على) الأسفنطا ؛ ورأيا الماء نازلا عما عليه كان ، لأنه فاض من الدرج الخارج وعم ساحة المكان ؛ ثم عادا إلى محل الضيافة ، فإن أمواجه كانت كبيرة ، واختلاف أهويته كثيرة ، وكان كبير ذلك المحفل الجامع والداعي لبيته وضيافته جناب الشيخ عبد الرؤوف البشبيشي ، وقطعا ذلك النهار ، والداعي الصفي نجل الحنفي الولي يلاطفهما .

وبعد أيام دعى الشيخ الاصلاح بين الشيخ محمد شنن والشيخ أحمد (القدوسي ؟) وأقام معهم في صفا ووفا ، على بركة الرطلي التي تمتلئ إذا النيل وفا ، وكان يوماً مشهوداً بالأفاضل المعتبرين ممدوداً بمكارم الكريمي المستقي هو وأخوه من بحر الشاذلي ، وكان أخوه قد دعا الشيخ بعد أيام للحضور في داره ، وقصد بعد أيام لزيارة مقام زين العابدين .

ثم توجه صحبة الشيخ محمد الخليلي إلى جامع سيدي عمرو بن العاص بن وائل السهمي فاتح مصر ، وقد لقب أبوه بالعاصي على أحد الأقوال لأنه كان يتقلد بالعصا عوضاً عن السيف فسمي بالعاصي . وكانت زيارته وزيارة سيدي عقبة بن عامر الجهني تقدمت ، ورأى الشيخ في الجامع مصحفين بخطان للامامين سيدي عثمان وسيدي علي رضي الله عنهما ، ويقول « إنه بالبعد عن المدينة ، اضمحلت بعض رسومه المتينة » ، وصعد المنبر ، فوعظ وسار بعد ذلك إلى مصر العتيقة وكر ثانياً إلى المقياس . ويقول الشيخ ولو أراد سرد ترجمة من زارهم في القرافتين وقبور المجاورين ، لاحتاج إلى وقت طويل . وكان من الذين أخذوا العهد على الشيخ ومن المترددين عليه الشيخ محمد الحفناوي . وممن دعا الشيخ إلى داره الشيخ محمد العناني ذو النسب العمري والحسب الشمسي القمري ، وأغدق عليه البرات .

ويقول الشيخ « وكنا نستعمل القصب بكثرة غير مختصرة ، حتى اتخذنا له من الخشب صغير معصرة ، ويقال إن الإمام الطلبي صاحب المذهب ، ابن عم النبي كان سبب نزوله القاهرة ، حبه في القصب السكري ، وفي ذلك يقول الإمام السيوطي :

نزلتُ على القصب السكري نزول رجال يريدون نهبه
بجز كجز رؤوس العـــدا ومص كمص شفاه الأحبة

وكان يتردد كثيراً مع الشيخ الخليلي إلى بولاق لأجل الاطلاق لا من الإملاق ، وكذلك لزيارة الشيخ فرج ، وصعد طبقة فرأى على جدرانها أبياتاً أثبتها منها :

ومن عجب الأيام أنك جالس على الأرض في الدنيا وأنت تسير
وسيرك يا هذا كسير سفينة يقوم جلوس والقلاع تطير

وكان الشيخ قد زار في أوائل قدومه الولي الشيخ محمد الدمرداش ، ودعاه أولاده الشيخ محمد صاحب السجادة والشيخ عثمان ، ودخل خلوة الشيخ .

(البقية في العدد القادم)

أحمد سامح الخالدي

---

(١) بها مشهد عظيم بناه الفاطميين من خطاء مصر (الأنس الجليل ج ٢ — ٤٢٢) . (٢) سنة ٥٤٨ هـ .

(٣) وزير السلطان صلاح الدين كان إنشاءه توفي (٥٩٦ هـ) في القاهرة .